هجرة يهود الأندلس إلى المغرب الأوسط

أ.م.د. عميرات محمد أمين

مركز الدراسات الأندلسية/ الجزائر

الملخص

بات التواجد اليهودي بتلمسان يؤرق النخب المثقفة مما أدَّى إلى تشعب القراءات حول هذا الموضوع فانبثق بذلك تصنيفان لهذه القراءة منها ما هو معرفي يهتم بالحقائق التاريخية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ومنها ما هو أيديولوجي يؤسس للشرعية السياسية والدينية فكان بذلك أجدر بنا أن نهتم بهذا التواجد من خلال قراءة تاريخية تجسد لنا البعد العلائقي بين الأندلس والمغرب الأوسط على المستويات التجارية والثقافية ومن ثم محاولة التعرف أكثر على حيثيات هذه الهجرة التي لم تتأتى من العدم .

The Migration of Al – Andalus jews to Al – Maghrib – al – Awsat

Asst .Prof. Dr. Amirat Mohammed Amine

Centre Historic The Prehistoric / Algeria

Abstract

La présence juive à Tlemcen a conduit à la complexité des lectures dont la classifications de la lecture, certains est cognitive se soucie historique, économique, social et culturelles et certains idéologiquement fondé sur la légitimité politique et religieuse était donc plus digne de nous de se soucier de cette présence à travers la lecture historique qui a incarner notre dimension relationnelle entre l'Andalousie et le Maghreb centrale sur les niveaux commerciaux et culturels et essayer d'apprendre plus sur le bien-fondé de cette migration.

مقدمة :

البحث في هجرة يهود الأندلس الى تلمسان ليس بالأمر السهل لأننا نتعاطى مع مواضيع ليست من واقع اللحظة بقدر ماهي مجموعة معارف لفترة زمنية قد ولت، ونتيجة لما يشوب الموضوع من حساسية وأحكام مسبقة فإننا سنكون أكثر موضوعية بعمل توفيقي نسبي نتطرق من خلاله الى أهم الأسباب التي أدت الى هذه الهجرة من تدهور الأوضاع السياسية والاجتماعية بالأندلس ومن ثم طرح السؤال : لماذا المغرب الأوسط بالأخص ؟ أي التعرف علي العلاقات السياسية والتجارية بين الأندلس والمغرب الأوسط كلها متغيرات تساهم في هذه البناءات التحليلية لهذه الفترة الزمنية من تاريخ مدينة تلمسان بالذات ، ومع تحديد هذا الفضاء الجغرافي سوف نتعرف على :

١- الدور الذي لعبه افرايم عنقاوة في جلب الجالية اليهودية الى مدينة تلمسان .

٢- الدور الاجتماعي و التجاري الذي مارسته الجالية اليهودية داخل هذه المدينة من خلال هذه الممارسات العلنية نجد تظاهرات ثقافية غير مرئية تجسد روحانية الفرد اليهودي .

أولا: الهجرة الأندلسية تجاه المغرب الأوسط

١-دوافعها:

أ- **تدهور الأوضاع السياسية والاجتماعية بالأندلس:**كان لتدهور الأوضاع السياسية بالأندلس أثر مباشر على توالي الهجرات الأندلسية تجاه المغرب الأوسط بصفة خاصة، لا سيما بعد ضعف الموحدين [١] وانهزامهم في معركة حصن العقاب (٦٠٩هـ/ ١٢١٢م)، تلك المعركة التي كانت بداية نهاية الوجود الإسلامي بالأندلس[٢]، ونتيجة لذلك الضعف توالت الفتن والثورات ضد الموحدين، سواء من المسلمين كثورة بني مردنيش [٣]، وابن هود الجذامي ٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م بألمرية، أو من قبل المسيحيين الذين استغلوا تلك الأوضاع فراحوا يُصعدون من حدّة هجماتهم

وضرباتهم على المدن الإسلامية، فسقطت الكثير من المدن بأيديهم، وعاثوا فيها فسادا، كماردة التي سقطت سنة ٦٢٧هـ/ ١٢٢٨م، قرطبة ٦٣٣هـ/١٢٣٦م، بنسبة ٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م، اشبيلية ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م[٤] وغيرها من المدن الأخرى، ونتيجة لذلك هجر الكثير من الأندلسيين تلك المدن هروبا من اضطهاد النصاري، إلى المدن التي كانت لا تزال بأيدي المسلمين سيما غرناطة آخر معقل للمسلمين بالأندلس والتي كانت تحت حكم بني نصر (بني الأحمر) واستطاعت الصمود في وجه ضربات النصارى[٥]، في حين فضل الكثير من الأندلسيين عدم البقاء بالأندلس، والجواز إلى بلاد المغرب الإسلامي وحتى إلى المشرق الإسلامي، نظرا لتوقعهم بعد صمود غرناطة، وأن سلطان المسلمين بالأندلس قد أوشك أمده على الانتهاء، خاصة وأن دول المغرب الإسلامي الثلاث (بني مرين، بني زيان، بني حفص) كانت تعاني هي الأخرى الضعف والصراع المتواصل فيما بينها، ولم يعد الأندلسيون ينتظرون منها الكثير، سيما بعد انهزام بني مرين وبني الأحمر في وقعة طريف[٦]، ضد المسيحيين المتكونين من القشتاليين والأرجونيين والبرتغاليين، والتي انتهت بهزيمة كبرى للمسلمين سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م، واستشهد فيها عدد كبير من المسلمين، كان من بينهم الكثير من علماء المغرب والأندلس[٧]، وكان من نتائجها انكسار شوكة بني مرين، الأمر الذي زاد من تشجيع الأندلسيين على ترك بلادهم والهجرة نحو أماكن آمنة.

كما كان للأوضاع الاجتماعية بالأندلس أيضا دور في هجرة الكثير من الأندلسيين نحو بلاد المغرب الإسلامي، بسبب الظلم وثقل أعباء الضرائب، وحتى الصراع العنصري بين طبقات المجتمع الأندلسي[٨] والذي نتج عن ازدحام غرناطة بالسكان نتيجة الهجرات المتوالية إليها من المدن الأندلسية الأخرى التي سقطت في أيدي الإسبان[٩]،فارتفعت الأسعار ارتفاعا مذهلا، لم يستطيع الكثير من السكان تحملها ممّا دفعهم إلى الهجرة وترك غرناطة، ونتيجة للصراع الدائم الذي كان قائما بين المسلمين والمسيحيين بالأندلس، كانت الضرائب مرتفعة جدا وذلك لتغطية نفقات الحرب، فكان المواطن الغرناطي يدفع مثلا في القرن ٩هـ / ١٥م ضريبة أكثر بثلاث مرات ما كان يدفعه المواطن القشتالي[١٠].

ب – العلاقات السياسية والتجارية بين المغرب الأوسط والأندلس:

لقد ربطت الأندلس في عهد بني نصر علاقات سياسية متميزة مع دول المغرب الإسلامي، وذلك راجع بالدرجة الأولى إلى تدهور الأوضاع السياسية بالأندلس بعد استيلاء النصارى على عديد المدن ممّا جعل بني نصر يستنجدون بهم، لاسيما ببني مرين الذين أجازوا مرات عديدة إلى الأندلس، وكان لهم دور هام في الجهاد هناك وما يؤكد تميز العلاقات بينهما تلك الرسائل العديدة المتبادلة بين الجانبين، ولما حقق بنو مرين انتصارات عديدة ضد النصارى في الأندلس أصبح لديهم نفوذ كبير، ممّا جعل سلاطين بني نصر يتخوفون منهم، لاسيما في عهد السلطان محمد الفقيه (٦٧١– ٧٠١هـ/ ١٢٧٢– ١٣٠٢م) ثاني سلاطين بني نصر[١١] الذي استدعى يعقوب بن عبد الحق المريني، ولكن سرعان ما خشي (محمد الفقيه) أن يحصل له مثلما حصل للمعتمد بن عباد مع يوسف بن تاشفين [١٢]، ممّا جعله يفكر في طريقة للخلاص من السلطان المريني[١٣]، فعمل على توثيق علاقاته السياسية مع بني زيان، وسلطانهم آنذاك يغمراسن بن زيان، وتمثلت تلك العلاقات في تبادل الهدايا والرسائل والأموال وطالب بنو نصر من بني زيان ضرورة التعاون معهم لضرب المرينيين، واتفقا الطرفان على مهاجمة يغمراسن بن زيان لحدود بني مرين حتى يصرف يعقوب ابن عبد الحق المريني عن الجواز إلى الأندلس، وبالفعل راح يغمراسن بن زيان يُغير على حدود الدولة المرينية، بالرغم من طلب يعقوب المريني من يغمراسن عقد صلح سنة ٦٧٩هـ/ ١٢٨١م رفضه يغمراسن فخرج يعقوب لقتاله وهزمه عند وادي تافنة [١٤]، ولم تقتصر العلاقات السياسية بين بني نصر وبني زيان على عهد يغمراسن ابن زيان، بل تواصلت لاسيما في عهد أبي حمو موسى الثاني المولود بغرناطة سنة ٧٢٢هـ/ ١٣٢٢م [١٥]، وما يدل على ذلك تلك الرسائل العديدة التي تلقاها من الوزير لسان الدين بن الخطيب، وعموما فإن العلاقات السياسية بين بني نصر وبني زيان كانت متميزة، لكن لم تكن بمستوى علاقات بني نصر ببني مرين وذلك راجع لإغفال بني زيان أمر الجهاد في الأندلس، نظرا لانشغالهم بثورات القبائل من جهة، وهجمات الحفصيين والمرينيين من جهة أخرى.

أما العلاقات التجارية بينهما (بني زيان وبني نصر) فكانت متميزة جدا، وساهمت بدور كبير في تمتين الروابط الثقافية بينهما، وقد ساعد على قوة العلاقات التجارية احتواء الدولتين على مراسي هامة كالمرية، مالقة بالأندلس وهنين، ووهران...بالمغرب الأوسط، والتي كانت تتم عبرها عملية التبادل التجاري وكانت الأندلس المصدر الرئيسي للدولة الزيانية لأغلب ما كان يصنع بها، كالمصنوعات الفخارية العطور والورق وغيرها من المواد الأخرى، في حين كان الأندلسيون يأخذون من المغرب الأوسط بعض المنتجات الزراعية لاسيما القمح [١٦].

وقد كان لتلك العلاقات سواء السياسية أو التجارية بين القطرين أثر مباشر على الهجرة الأندلسية تجاه المغرب الأوسط، إذ راح الأندلسيون يتوافدون على مدنه (المغرب الأوسط)، لاسيما عاصمته تلمسان التي أحسن سلاطينها استقبالهم وإكرامهم[١٧] لاسيما يغمراسن بن زيان الذي أصدر قرار (ظهيرا) يمنح المهاجرين الحق في السكن وتملك الأراضي الزراعية جاء فيه:"وأطلع يغمراسن على أغراضعم (الأندلسيين) السديدة في اختيار حضرته السعيدة للسكن على سائر البلاد فلاحظ منهم النية واعتبرها وأظهر عليهم مزايا...فبوّأهم من اهتمامه الكريم وانعامه العميم جناتا ألفافا، وطأهم جناب احترامه تأنيسا لقلوبهم المنجاشة...وأضفى عليهم من جنن حمايته، ما ينفع عنهم طواف الاضطهاد"[١٨].

ج- الازدهار الحضاري للمغرب الأوسط في عهد بني زيان:

عرف المغرب الأوسط في عهد بني زيان ازدهارا حضاريا في شتى المجالات سيما المجال الثقافي، والذي سبق التطرق إليه، وذلك الازدهار راجع بالدرجة الأولى إلى اهتمام السلاطين الزيانيين بهذا الجانب، واشتراكهم فيه كأبي حمو موسى الثاني وغيره [١٩].

وكانت العاصمة تلمسان من أهم المراكز الثقافية التي يقصدها العلماء والأدباء من مختلف الأقطار[٢٠]، نظرا لاحتوائهم على العديد من المؤسسات التعليمية والثقافية

كما سبق الإشارة إلى ذلك، وازدهارها في فن النسخ والوراقة، إذ تنافس العلماء والطلبة على نسخ المصاحف والكتب المشهورة، وشارك في ذلك حتى السلاطين الزيانيين، كأبي زيان الثاني (٧٩٦- ٨٠١هـ/ ١٣٩٤- ١٣٩٩م) الذي نسخ نسخا من القرآن الكريم، ونسخة من صحيح البخاري ونسخة من كتاب الشفا للقاضي عياض [٢١]، وما يدل على ازدهار فن النسخ تأليف العلماء في هذا المجال كأبي عبد الله ابن مرزوق الحفيد الذي كتب رسالة سنة ٨٤٢هـ/ ١٢٣٨م سماها:" تقرير الدليل الواضح المعلوم على جواز النسخ في كاغط الروم". وذلك بعد امتناع البعض عن النسخ في الورق المستورد من البندقية [٢٢]. وله كذلك رسالة أخرى سماها:" المومي إلى القول بطهارة الورق الرومي". كما وجدت بتلمسان عدة مكتبات ساهمت هي الأخرى في إنعاش الحياة الثقافية بها، كالمكتبة التي شيدها أبو حمو موسى الثاني بالمسجد الأعظم سنة ٧٦٠هـ/ ١٣٥٩م [٢٣].

أما الجانب الاقتصادي فعرف هو الآخر ازدهارا بالمغرب الأوسط في عهد بني زيان، لاسيما في فترات الأمن والسلم، وذلك راجع إلى الموقع الهام لدولة بني زيان وعاصمتها تلمسان التي قال فيها يحي بن خلدون:" وسط بين الصحراء والتل، لدنة الهواء، عذبة الماء، كريمة المنبت، [٢٤] وكانت الفلاحة النشاط الميز والرئيسي للمجتمع الزياني، خاصة زراعة الحبوب كالقمح الذي كان مردوده يكفي لعدة سنوات إضافة إلى زراعة القطن وقصب السكر والأشجار المثمرة كالزيتون والتفاح والتين والكروم...، وقد عبر الإدريسي عن ازدهار الفلاحة في وصفه لتلمسان بقوله:"... وغلاتها ومزارعها كثيرة، وفواكهها جمة، وخيراتها شاملة، ولم يكن في بلاد المغرب بعد مدينة فاس أكثر من أهلها أموالا ولا أرفه منهم حالا" [٢٥].

واهتم الزيانيون كذلك بتربية مختلف أنواع الحيوانات، وعملوا على استخراج المياه وجلبها عن طريق القنوات لاستغلالها في الزراعة.

وفيما يخص الصناعة فهي الأخرى عرفت تطورا وازدهارا فاشتهرت عدة حرف وصناعات، حتى أنه كانت توجد في تلمسان شوارع سميت باسم الحرفة أو الصناعة

التي تمارس فيها، فكان هناك شارع السراجين، شارع الفخارين، طريق المعصرة، طريق الصابون...، واشتهرت بصفة خاصة صناعة النحاس والنقش عليه، وما يدل على رقى الحرف والصناعات في العهد الزياني، رغم طابعها التقليدي، وجود تلك المنجانة (الساعة) العجيبة الصنع، التي اختراعها العالم الرياضي أبو الحسن على بن أحمد المعروف بابن الفحام في عهد السلطان أبي حمو موسى الثاني[٢٦].

كما عرف الجانب التجاري أيضا رقيا نظرا للموقع الهام للمغرب الأوسط والذي يربط بين الشرق والغرب والشمال والجنوب، وكانت مدنه عبارة عن ملتقى تلتقي فيها البضائع، لاسيما عاصمته تلمسان [٢٧]، وساعد على ذلك وجود مراسي هامة لعبت دورا كبيرا في العلاقات التجارية بين المغرب الأوسط والأندلس والجمهوريات الإيطالية كميناء هنين، وأرشكول، ووهران [٢٨]، فغذت تلمسان بمثابة المستودع الذي تتدفق عليه البضائع من مختلف الجهات، وأهم تلك البضائع لأدوات الحديدية، الأقمشة الزجاج والتي كان يأتي بها التجار الأوربيون، ويأخذون الحبوب والزيوت والجلود أما من بلاد السودان الغربي فكان يجلب منه الذهب والعبيد الذين كانوا ينقلون لأوربا وبعض الحيوانات الغربية عن بلاد المغرب الإسلامي كالزرافة مثلا، وكان يُصدر إليه والخيل والمنسوجات،[٢٩] وعُرف تجار تلمسان بالإخلاص والصدق في تجارتهم، والحرص على تزويد مدينتهم بالمؤن والمواد التي تحتاجها، وقد اشتهرت عدة أسر مارست التجارة على غرار أسرة المقري (الإخوة أبو بكر محمد، عبد الواحد وعلي) الذين أسسوا شركة تجارية للتجارة مع بلاد السودان الغربي.

ولقد شجع هذا الازدهار الذي عرفه المغرب الأوسط في عهد بني زيان في المجال الثقافي والاقتصادي المهاجرين الأندلسيين على النزول بأراضي المغرب الأوسط وعاصمته تلمسان[٣٠] التي كانت تشبه كثيرا مدن الأندلس لكثرة مياهها وبساتينها وصناعها، فوجد الأندلسيون فيها تعويضا عما تركوه في مدن الأندلس[٣١].

٢- مراحل الهجرة الأندلسية تجاه المغرب الأوسط في عهد بني زيان:

من خلال تتبع مسار الهجرة الأندلسية تجاه دولة بني زيان يمكن تقسيمها إلى مرحلتين أساسيتين ، المرحلة الأولى وهي الممتدة من قيام دولة بني زيان (٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م) إلى غاية سقوط غرناطة (٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م)، وفي هذه الفترة عرفت دولة بني زيان نوع من الاستقرار والتطور النسبي في مجالات عدة، وفي المقابل تدهور الأحوال بالأندلس، وسقوط الكثير من المدن والحصون بيد النصارى [٣٢]، ونتيجة لاشتداد ضربات النصارى للمسلمين بالأندلس، كان عدد المهاجرين نحو المغرب الأوسط كبيرا، وفي هذه الفترة أو المرحلة كان أغلب المهاجرين يستقرون بالعاصمة تلمسان والتي تكونت بها جاليات أندلسية عديدة اشتهر ذكرها، كأسرة بني وضاح التي رحلت من شرق الأندلس، وكان لها مكانة كبيرة لدى السلطان يغمراسن بن زيان، وأسرة بني ملاح القادمة من قرطبة من قرطبة، والتي اشتهرت بالعلم والأدب، واختص بعض أفرادها بوظيفة صك النقود، ومنهم من تقلد وظيفة الحجابة [٣٣]، ومنصب صاحب الأشغال لدى السلطان يغمراسن كعبد الرحمان بن محمد بن الملاح [٣٤]، وكان لبعض الأسر دور في دفع الحركة العلمية والتعليمية بالمغرب الأوسط، كأسرة العقباني التي أنجبت عدد

ثانيا: الأزمة الأندلسية وهجرة اليهود إلى تلمسان:

أصبحت تلمسان مقصد المهاجرين الأندلسيين بعد انقسام دولة الموحّدين وانكماش دولة الأحمر بغرناطة واتّباع الملوك الزيّانيين سياسة حسن الجوار تجاه حكّام الأندلس ليصدّوا الأطماع الحفصية والغارات المرينية.

شهدت الأندلس عقب ضعف وسقوط الدولة الموحدية الكثير من الاضطرابات السياسية، وقامت مجموعة من الإمارات على الشريط الجنوبي والشرقي الأندلسي كإمارة ابن مردنيش وإمارة بني هود وإمارة بني الأحمر، واشتدت حركت الاسترداد من طرف الممالك النصرانية، خاصة قشتالة وأرغون، ممّا دفع بالمسلمين واليهود

الأندلسيين إلى البحث عن أماكن أكثر أمنا واستقرارًا بعد تساقط مدنهم الواحدة تلوى الأخرى، فاضطرّوا إلى الانسحاب وترك مواطنهم والهجرة إلى البلدان الإسلاميّة الأخرى.

وشملت حركة الهجرة الأندلسيّة الكثير من الفئات الاجتماعيّة وكان منهم الطلبة والعلماء وأصحاب الحرف والصناع وغيرهم، حيث انتقل هؤلاء إلى حواضر المغرب والمشرق واستقروا في المدن أو البوادي ونشروا علومهم وحرفهم وفنونهم.

وقد اختار الكثير من الأندلسيين المغرب الأوسط كموطن جديد بعد مغادرة مدنهم الأصلية في الأندلس، وفضّلوا الاستقرار في حاضرته تلمسان "كثيرا ما يطلق اليهود على مدينة تلمسان اسم 'قدس شمال إفريقيا' لما لها من اهمّية في تاريخهم بالمغرب الإسلامي ومن كثافة بشرية ونشاط اقتصادي وأماكن مقدّسة لم تتوفّر لهم في المدن الجزائرية الأخرى ورغم بعض الإشارات الأدبية للوجود اليهودي في المدينة السّابق لعهد دخول الرّومان، فإن تاريخ المدينة لا يقدّم لنا أدلّة مقنعة سواء عن هذه الحقبة أو حتّى تلك التي ما بين العهد الرّوماني والفتح الإسلامي باستثناء التّسامح الوندالي معهم للإقامة" [٣٥] خاصة بعد صدور مرسوم الطرد الخاص بالمسلمين واليهود في ٢٢ جمادى الأولى ٨٩٧هـ/ ٣٠ مارس ١٤٩٢م والموقع من طرف الملكين فردناندو وايزابيلا، والقاضي بأن يغادر سائر اليهود الذين لم ينتصروا اسبانيا في غضون أربعة أشهر، ولا يسمح لهم بالعودة إليها أبدا، ويعاقب المخالفون لهذا القرار بالإعدام والمصادرة، وقد تنصر كثير من اليهود حفاظا على أرواحهم وأموالهم، وإن كنا نرى أنه تنصر ظاهري مرحلي فقط مثلما حدث مع المسلمين.

وكانت طرق رحيل اليهود عن الأندلس هي نفسها طرق المسلمين، حيث اشتركوا في هذه المحنة، وكانت السفن تقلهم من الموانئ الأندلسية إلى سواحل المغرب الأقصى والأوسط، ونزلوا في المدن الساحلية مثل هنين ووهران ومستغانم، ثم اتجهوا إلى المدن الداخلية خاصة حاضرة تلمسان "وأقام يهود المغرب الأوسط بين المسلمين وامتزجوا بهم في الأحياء، وبنو مساكنهم بينهم شرط أن لا ترتفع أو تعلو

على منازل المسلمين ومساجدهم [٣٦] وقد لاقوا في رحلتهم هذه المآسي، حيث كانت أهوال البحر من جهة، ونقص المؤونة والأمراض من جهة أخرى، ولما دخلوا بلاد المغرب اعترضهم قطاع الطرق طمعا فيما كان عندهم من أموال ونفائس إن وجدت.

ولم يكن سقوط غرناطة هو السبب وراء هجرات الجالية اليهودية إلى تلمسان، بل هاجرت طائفة مهم سنة ٧٩٥هـ/ ١٣٩١م بزعامة الربي أفراييم انكاوة (ابراهيم عنقاوة) الذي نسجت حول هجرته الأساطير الممزوجة بالحقيقة التاريخية.

ثالثا: دور أفراييم عنقاوة في جلب الجالية اليهودية إلى تلمسان:

هو أفراييم بن اسرائيل عنقاوة الفقيه والطبيب الأندلسي اليهودي الذي هاجر من الأندلس سنة ٧٩٥هـ/ ١٣٩١م، واستقر بهنين ثم توجه إلى حاضرة بني زيان تلمسان، ليصبح فيما بعد أحد أقطاب الجالية اليهودية خلال حياته و أحد أوليائها الذين تحول قبره إلى مزار مقدس وحج سنوي بعد وفاته سنة ٨٤٦هـ/ ١٤٤٢م.

وكانت هجرته من الأندلس إلى تلمسان بمفرده، حيث تروي الأساطير اليهودية بأنه نجا بمعجزة من الموت وهام على وجهه متوجها إلى المغرب الأقصى بداية ثم إلى تلمسان. وقد جاءه حين خروجه خائفا أسد طائع ليعينه في محنته ويعطي له ظهره ليمتطيه، وقد كان يحيط برأس الأسد ثعبان على شكل حلقة طرفاه في فم الأسد ليكون بذلك لجاما.

لقد كان إفراييم عنقاوة متمكنا في التعاليم التلمودية التي يكون قد ورثها عن أبيه الذي كان بدوره عالما له عدة مؤلفات، كما كان متمكنا من العلوم الطبية التي كانت تميّز اليهود المقيمين في أوربا والأندلس، والتي جعلت منه طبيبا ماهرا، وقد أهله علمه الواسع وحنكته في زعامة الجالية اليهودية ليكون فيما بعد مقدما فيهم.

"وعندما قدم إلى تلمسان كان ملكها آنذاك السلطان أبو العباس احمد بن أبي حمو موسى الثاني الملقب بالعاقل، وكانت له ابنة أصيبت بمرض عجز كل الأطباء

المسلمين بالمدينة والمنطقة عن علاجه، وقد دفع جزع الملك أن ينذر لكل من يستطيع أن يشفيها جائزة معتبرة، فما كان من الطبيب اليهودي إلا أن تقدم إلى مقر السلطان لمقابلته وإخباره بشخصه وديانته ومهنته، وسأله السلطان هل يعتقد أنه يستطيع أن يشفى ابنته؟ فأجاب الطبيب: أن الله سبحانه هو وحده الذي يعلم الغيب، وأن علينا أن نتوكل عليه" (٣٧).

وعند دخول الطبيب على المريضة وجد أطباء آخرين حولها فطلب من الحاكم أن يخلي المكان ويصرفهم عنها، وبعد أيام من العلاج وتعاطي الأدوية تحسنت البنت وبدأت تتماثل للشفاء إلى أن برئت تماما، فسر السلطان الزياني، ودعى الطبيب اليهودي ليكافئه، فسأله عما يريد أن يحققه له أو يعطيه من مال، فما كان من اليهودي إلا أن قال للسلطان أنه لا يرغب في مال ولا سلطان ولكن ليقضي له حاجته الوحيدة وهي السماح لليهود المهاجرين المشردين والمقيمين خارج الأسوار لأن يسكنوا مدينته ويستقروا فيها بأمان.

وقد قبل السلطان الطلب وسمح لليهود بالقدوم إلى داخل المدينة، وأقطعهم أرضا في مكان لا يبعد عن شمال قصر المشور إلا بمسافة قصيرة، وجاء اختيار موقع هذه الإقامة بغية بسط الحماية على هذه الجالية، غير أن المكان الذي منح لهم كان معظمه مغمورا لكثرة المياه، وكان لزاما على كل يهودي يرغب في إقامة سكنه أن يجفّف المكان قبل الشروع في البناء.

بعد عرض هذه القصة عن إقامة أحد أقطاب اليهود بتلمسان، والحفاوة التي استقبل بها لدى السلطان الزياني، وتقريبه كطبيب للقصر الملكي، وإنفاذ كلمته في إدخال اليهود إلى عمق المدينة وقرب مقر السلطان، نتساءل ما الغرض الذي كان في نية اليهود؟ وما غرض السلطان الزياني من هذا الإجراء؟

وربما يقول مؤرخو اليهود بأن السلطان أراد حماية اليهود من المسلمين، ونحن نستبعد هذا الطرح إذ أن التعايش بين المسلم واليهودي تضبطه الشريعة، واليهودي في البلاد الإسلامية هو ذمي يدفع الجزية، أما الطرح الأسلم فهو أن المصلحة

المشتركة بين كبار العائلات اليهودية التي سمح لها بالاستقرار بجوار السلطان والسلطان نفسه هي التي تحكمت في رسم هذه العلاقة، والجدير بالذكر أن فقراء اليهود كانوا يعيشون خارج أسوار المدينة على الدوام ويزاولون مهنهم المعهودة والتي كان يستنكف عن ممارستها اليهود المنحدرون من أسر عريقة.

وفي سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م وفدت عدد كبير من المهاجرين اليهود إلى تلمسان بسبب تأزم الأوضاع السياسية في الأندلس، وقد أحدثت هذه الهجرة أزمة بين الوافدين الجدد واليهود القدامى، وقد تدخّل الربى أفراييم عنقاوة لحل المشكل بين المتنازعين والتقريب بينهما، "كما لعب يهود المغرب الأوسط في الدّولة العبد الوادية دورا في حلّ النّزاعات بين اليهود الأهالي واليهود المهاجرين من الأندلس الوافدين على بلاد المغرب الأوسط، كما كان لهم دور في حلّ النزاعات فيما بينهم، مثلما حدث في الدولة العبد الوادية سنة ١٤٠٠م التي شهدت نزاعا بين اليهود الأهالي واليهود المهاجرين، وكان ذلك بسبب الاختلاف في اللغة والمذهب والعادات والمفاهيم الاجتماعية والمنافسة الاقتصادية" (٣٨).

وعقب سقوط غرناطة ازداد عدد الوافدين من الجالية اليهودية على مدينة تلمسان، واستقروا بداخلها وبخارج أسوارها وشكلوا جالية مهمة لها طابعها الاجتماعي والثقافي والاقتصادي المميز.

رابعا: أوضاع الجالية اليهودية الأندلسية بتلمسان:

تُرجمت هذه الأوضاع في مستويات اجتماعية وثقافية وتجارية، فكانت الجالية اليهودية بتلمسان تسكن داخل درب اليهود شمال وشرق قصر المشور، وهو عبارة عن حي مغلق كان خاصا بهم وحدهم، خلافا لليهود القدماء الذين كانوا يقطنون حيا خاصا بهم بأغادير، وسمح هذا للسلطة الزيانية بتتبع نشاطهم ومراقبتهم، خاصة وأنهم اشتهروا بصياغة الذهب، والمتاجرة فيه وهو ما سمح لهم بتجميع الثروات التي كان البلاط الزياني في حاجة إليها على الدوام، "يُرجع المؤرّخون أن الفضل لتجمّع اليهود في حارة واحدة يعود بالدّرجة الأولى للدّور البارز الذي قام به الطّبيب اليهودي أفراييم عنقاوة الذي تمكّن من معالجة ابنة السّلطان، وكمكافأة له سمح لهم بالدّخول والتّجمّع بالقرب من المقرّ الرئيسي للعاصمة الزيّانية" (٣٩).

وكان لهم بيعة خاصة بهم يديرها رئيس الطائفة الذي يقوم بدور الوسيط بينها وبين السلطات الزيانية بقصر المشور، كما كان لهم مقبرة خاصة بهم وهي الموجودة في حي قباسة خارج باب القرمادين شمال المدينة.

وكانت لليهود عادات خاصة من الاحتفالات والأعياد الدينية، كما كانت لديهم عادات وطقوس في زيارة الأضرحة الخاصة بأوليائهم، وهي العادة التي ربما اقتبسها منهم المسلمون واستمروا عليها إلى اليوم.

كما كانت لهم إمكانية التملك والتصرف فيما يملكون، وكانت بحوزتهم الكثير من العقارات التي تحوي المنازل والفنادق، كما ابتنوا مدارس لتعليم أبنائهم.

وكان الكثير من اليهود تجارا، وساهموا في ربط العلاقات التجارية بين تلمسان وبلاد أوروبا خاصة مملكة قطلانية، كما سعوا إلى تكوين قوة اقتصادية عن طريق السيطرة على طريق الذهب الرابط بين تلمسان وسجلماسة وتوات وبلاد السودان الغربي، وكان لهم ذلك ومن المرجح أنهم سبب إفلاس الشركة المقرية التي كانت من الشركات التي تسيطر على هذه الطريق.

أما ثقافيا فالمعلوم أن اليهود من أهل الكتاب، وهذا دافع كاف من أجل الاهتمام بالدراسات الدينية والشرعية، وأقبل أحبار اليهود على التأليف في علوم الدين، كما لم يهملوا العلوم الأخرى، واشتهروا بالطب ومهروا فيه، وكان علماء المسلمين يقصدونهم لتعلم هذا العلم، ولعل المثال الأبرز على ذلك ما أورده الرحالة المشرقي عبد الباسط بن خليل بن شاهين الشيخي الأصل الملطي ثم القاهري الحنفي (ت: ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م) الذي دخل تلمسان في حدود ٨٦٩هـ/ ١٤٦٧م واتصل بالبلاط الزياني وبالكثير من العلماء التلمسانيين، كما التقى بالطبيب اليهودي موشي بن صمويل بن يهود الإسرائيلي المالقي الأندلسي اليهودي المعروف بابن الأشقر وقال عنه:" لم أسمع بذمّي ولا رأيت كمثله في مهارته في هذا العلم وفي علم الوفق والميقات وبعض العلوم القديمة مع التعبّد الزائد في دينه على ما يزعمه ويعتقده وهو في الأصل من يهود الأندلس وولد بمالقة قبل ٨٢٠هـ واخذ عن أبيه وغيره وشهر في صناعة الطب وانتقل إلى تلمسان فقطنها وقصده الكثير من الفضلاء للأخذ عنه، لازمته مدّة وأخذت عنه نبذة كبيرة نافعة في الطب وغيره وأجازني".

الخـاتـمـة :

ما يمكن أن نخلص اليه أن ثمة نتائج تشكل خاتمة قراءة هذا التواجد اليهودي في مدينة تلمسان في ثلاث نقاط محددة :

١- بلغ التواجد اليهودي في مدينة تلمسان حوالي ٥٠٠ بيت .

٢- قوة سياسية و اقتصادية (كان بعض سلاطين بني زيان يستخدمون اليهود في السفارة الى مملكة قطلانية) .

٣- تدخل اليهود في شؤون الحكم تسبب في مشاكل كثيرة أشهرها قضية يهود توات التي برز فيها نجم الشيع محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني التي بدأت مجرياتها من تلمسان و هنا نقول كما قال الشاعر :

تلمسان أرض لاتليق بحالنـــــــا و لكن لطف الله نسأل في القضا

وكيف يحب المرء أرض يسوسها يهود و فجار و من ليس يرتضـــى

الهوامش

(١) المقري، نفح الطيب مكن غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، ١٠ أجزاء، تح محمد البقاعي، ط١، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٨ ،ج٥، ص٢٨٥.

(٢) عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ط١، شرحه صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٦، ص ص٢٣٥- ٢٣٦.

(٣) ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣،ج٤، ص١٩٨.

(٤) المصدر نفسه، ص ص٢٠٤- ٢٠٥.

(٥) المقري، نفح الطيب، المصدر السابق، ج٥، ص ٣٩٤.

(٦) تعرف هذه المعركة في المصادر الإسبانية بمعركة "سالادو" "Battalla de salado" وسمّاها ابن الخطيب بالوقعية العظمى، أنظر ابن الخطيب، كناسة الدّكّان بعد انتقال السكان، تح محمد كمال شبانة، ط١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ٣٨.

(٧) ابن الخطيب، كناسة الدكان، المصدر السابق، ص ص ٣٥- ٤٠.

(٨) عز الدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، ط١، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ١٩٨٣، ص ٨٨.

(٩) ابن خلدون، العبر، المصدر السابق، ج٤، ص ص ٢٠٤- ٢٠٥.

(١٠) الطوخي أحمد أمين، مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٧ ، ص ص ٢٥٨- ٢٦٤.

(١١) ابن خلدون، العبر، المصدر السابق، ج٧، ص ١٠٥.

(١٢) يوسف بن تاشفين: أحد أهم ملوك المرابطين، كان له دور كبير في الجهاد بالأندلس، إذ انتصر على النصارى في معركة الزلاقة (٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م)، كما قضى على امراء الطوائف واخضع الأندلس لحكم المرابطين، أنظر ابن الخطيب، أعمال الأعلام، تح أحمد مختار العبادي، محمد إبراهيم الكتّاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٦٤، ص ص٢٣٣- ٢٥٢.

(١٣) ابن خلدون، العبر، المصدر نفسه، ج٤، ص ص ١٨٩- ١٩٠.

(١٤) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تح عبد الوهاب بن منصور، مطبعة دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢، ص ص ٣٣٦- ٣٣٧.

(١٥) ابن الأحمر، تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، تحقيق هاني سلامة، مكتبة الثقافة الدينية للنشر والتوزيع، بور سعيد، ٢٠٠١، ص ٧٦.

(١٦) الطوخي، مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر، المرجع السابق، ص ٩٣.

(١٧) يحي بن خلدون، العبر، المصدر السابق، ج١، ص١٢٩.

(١٨) خالد بلعربي، الدولة الزيانية في عهد يغمراسن بن زيان، ط١، مطبعة تلمسان، ٢٠٠٥، ص٢٤٣.

(١٩) التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، تح مجمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٥، ص ١٦٤.

(٢٠) عبد الحميد حاجيات، تلمسان مركز الإشعاع الثقافي"، المرجع السابق، ص ص ٣٥- ٤٣.

(٢١) التنسي، تاريخ بني زيان، المصدر السابق، ص ٢١١.

(٢٢) أبو زكريا المازوني، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، تح حسّاني مختار، ج١، نشر مخبر المخطوطات، جامعة الجزائر، ٢٠٠٤، ص ص٦٨- ٨١.

(٢٣) لخضر عبدلي، الحياة الثقافية بالمغرب الأوسط في عهد بني زيان (٦٣٣-٩٦٢ هـ/١٢٣٦-١٥٥٤م)، دكتوراه دولة في التاريخ الإسلامي، جامعة تلمسان، ٢٠٠٤-٢٠٠٥، ص ١٣٦.

(٢٤) يحي بن خلدون، العبر، المصدر السابق، ج١، ص٨٥.

(٢٥) الإدريسي، القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٣، ص ص ١٤٩- ١٥٠.

(٢٦) التنسي، تاريخ بني زيان، المصدر السابق، ص ص ١٦٢- ١٦٣، يحي بن خلدون، المصدر السابق، ج١ ص ٥٦.

(٢٧)الإدريسي، القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، المرجع السابق، ص ص١٤٩- ١٥١.

(٢٨) البكري، المُغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، نشر دوسلان، باريس، ١٩٦٥ ص ص: ٧٧- ٨٠.

(29)Atallah Dhina. Les étas de l'occident musulman au 13 et 15 siècles, office de publication universitaires, Alger, pp 365- 371.

(٣٠) حنيفي هلايلي، الموريسكيون الأندلسيون في المغرب الأوسط خلال القرنيين ١٦و ١٧، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة وهران، ١٩٩٩- ٢٠٠٠، ص ص ١١٩- ١٢٠.

(٣١) ابن سعيد الغرناطي، كتاب الجغرافيا، تح اسماعيل العربي، ط٢، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٢، ص١٤٠.

(٣٢) ابن خلدون، العبر، المصدر السابق، ج٤، ص ص ٢٠٤- ٢٠٥.

(٣٣) ابن خلدون، العبر، المصدر السابق، ج٧، ص ٩٣.

(٣٤) نفسه، ج١، ص ٢٠٥.

(٣٥) الموسوعة اليهودية التي نشرت ما بين ١٩٠١ و١٩٠٦ التي تحتوي على ١٥٠٠٠ مقال، أنظر في

http://www. Jewishencyclopedia.com/view.jsp ?artid=1221&letter=A

(٣٦) الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار ابن قتيبة للنشر، الكويت، ١٩٨٩،ص ١٣٧

(٣٧) دارمون، يهود تلمسان، المجلة الإفريقية رقم ١٤، سنة ١٨٧٠، ص ٣٨٠.

(٣٨) عبد العزيز فيلاي، تلمسان في العهد الزياني، ج١، ط١، دار موفم للنشر، الجزائر، ٢٠٠٧، ص ١٩٢.

(٣٩) فوزي سعد الله، يهود الجزائر هؤلاء المجهولون، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٩٦، ص ٥٣.

قائمة المصادر

١. ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تح عبد الوهاب بن منصور، مطبعة دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢.
٢. ابن الأحمر، تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، تحقيق هاني سلامة، مكتبة الثقافة الدينية للنشر والتوزيع، بور سعيد، ٢٠٠١.
٣. ابن الخطيب، أعمال الأعلام، تح أحمد مختار العبادي، محمد إبراهيم الكتّاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٦٤.
٤. ابن الخطيب، كناسة الدّكّان بعد انتقال السكان، تح محمد كمال شبانة، ط١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٣.
٥. ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣،ج٤.
٦. ابن سعيد الغرناطي، كتاب الجغرافيا، تح اسماعيل العربي، ط٢، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٢.
٧. أبو زكريا المازوني، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، تح حسّاني مختار، ج١، نشر مخبر المخطوطات، جامعة الجزائر، ٢٠٠٤.
٨. الإدريسي، القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٣.
٩. البكري، المُغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، نشر دوسلان، باريس، ١٩٦٥ .
١٠. التنسي، تاريخ بني زيان، المصدر السابق، ص ص ١٦٢– ١٦٣، يحي بن خلدون، المصدر السابق، ج١ .
١١. التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، تح مجمود بوعياد، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٥.
١٢. خالد بلعربي، الدولة الزيانية في عهد يغمراسن بن زيان، ط١، مطبعة تلمسان، ٢٠٠٥.
١٣. الطوخي أحمد أمين، مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٧.
١٤. عبد العزيز الفيلالي، تلمسان في العهد الزياني، ج١، ط١، دار موفم للنشر، الجزائر، ٢٠٠٧.

١٥. عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ط١، شرحه صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٦.
١٦. عز الدين أحمد موسى، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، ط١، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ١٩٨٣.
١٧. فوزي سعد الله، يهود الجزائر هؤلاء المجهولون، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٩٦.
١٨. المقري، نفح الطيب مكن غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، ١٠ أجزاء، تح محمد البقاعي، ط١، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٨ ،ج.٥
١٩. الماوردي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار ابن قتيبة للنشر، الكويت، ١٩٨٩.
20-Atallah Dhina. Les étas de l'occident musulman au 13 et 15 siècles, office de publication universitaires, Alger.
٢١. الموسوعة اليهودية التي نشرت ما بين ١٩٠١ و١٩٠٦ التي تحتوي على ١٥٠٠٠ مقال، أنظر في
http://www.Jewishencyclopedia.com/view.jsp ?artid=1221&letter=A
٢٢ . دارمون، يهود تلمسان، المجلة الإفريقية رقم ١٤، سنة ١٨٧٠.
٢٣. حنيفي هلايلي، الموريسكيون الأندلسيون في المغرب الأوسط خلال القرنيين ١٦و ١٧، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة وهران، ١٩٩٩- ٢٠٠٠.
٢٤. لخضر عبدلي، الحياة الثقافية بالمغرب الأوسط في عهد بني زيان (٦٣٣-٩٦٢ هـ/١٢٣٦-١٥٥٤م)، دكتوراه دولة في التاريخ الإسلامي، جامعة تلمسان، ٢٠٠٤-٢٠٠٥.